

* جَدَكِيَّةُ الشُّكِّ فِي الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَالتَّأْسِيسُ لِمَصَادِرِهِ ، بين "طه حسين" ، و"ناصر الدين الأسد" .

منداس عبد القادر

جامعة البليدة 2 - العفرون

ملخص المقال :

قضية الشك في الشعر الجاهلي من المهمات في النقد الأدبي قديما وحديثا ، حيث شغلت القدماء والمحدثين والمستشرقين على حدٍ سواء ، ولا تزال شاغلة لهم لحد الساعة ، وهو بحث تتعلق به عدد من القضايا الأدبية واللغوية الحساسة. وقد كان ابن سلام الجُمَحي من أوائل من وضع نواة نظرية الشك في الشعر الجاهلي ، وذلك على نحو معتدل فرَّق فيه بين شعر صحيح النسبة ، وشعر موضوع مصنوع ، وشعر يشك في نسبته. وقد وقع اختياري لكلٍّ من دراسة "طه حسين" و"ناصر الدين الأسد" حول الشعر الجاهلي ، لأجل تناولهما الموضوع بأسلوب علمي محدث ، يصدُر عن رؤية تضطلع بما توصلت إليه البحوث الحديثة في الكتابة والنقوش وغيرها ، مع غلبة المنهج التاريخي في استقصاء الحقائق واستحضار السياق لدى ناصر الأسد ، واعتماد منهج الشك الديكارتي لدى طه حسين الذي لم يهمل المنهج التاريخي بدوره.

وبعد المقارنة والنظر يبدو أن كلا من الكاتبين يملكان حججا عقلية جديرة بالدرس والمتابعة ، إذ يستندان إلى ما سطره القدماء من أصول دقيقة ، وما توصل إليه المحدثون لا سيما المستشرقون من نتائج علمية ملموسة. بيد أنهما في الوقت نفسه أبقيا البحث مفتوحا لمن يأتي بعدهما.

Résumé

La notion de « doute » dans la poésie préislamique est l'une des questions traitées par la critique ancienne et moderne. Parmi les premiers précurseurs il y a *Ibn Essalem El Djamhi* qui a voulu faire la différence entre les différents types de poésie.

Par notre article nous avons voulu étudier *Taha Hussein et Nacer Addine Al-Assad* car ils ont abordé la poésie préislamique d'une manière scientifique et moderne. Alors que *Nacer Addine Al-Assad* a adopté la méthode historique, *Taha Hussein* a opté pour une approche cartésienne du « doute » sans négliger néanmoins la méthode historique. Deux méthodes qui restent importantes à analyser car elles se fondent sur les principes des premiers chercheurs arabes et en même temps, sur les études orientalistes modernes

مقدمة :

يقع الحديث عن الشعر الجاهلي ومدى وثاقته في مركزية النقد الأدبي، إذ شغل كثيرا من الباحثين بعد أن وُضعت نواته قديما عبر إشارات مبثوثة في تراثا العربي، " ولما كانت طبيعة الأدب الفنية أنه يعلو عن التعبير المباشر إلى التعبير الرمزي الذي يثري المعنى ويخصب طاقاته الفنية والجمالية، فإن وظيفة النقد تتحدد في أمرين : الأول تفسير الأعمال الأدبية والكشف عن معانيها الكامنة وراء رموزها، والثاني تقويم هذه الأعمال وإصدار الأحكام الفنية عليها".¹ وعليه فإن الوظيفة الثانية - وظيفة التقويم والحكم والنظر - هي محط الاهتمام في دراستنا هذه.

ثم إن نشأة أي حركة نقدية يقتضي بالضرورة ثلاثة عناصر أساسية : " النص الشعري أو النثري الذي يدور حوله النقد، والبيئة المتحضرة القادرة على بعث الحيوية في هذا النشاط النقدي، والجمهور القادر على تذوق النصوص الأدبية

والذي تحمله ظروفه على التعلق بهذا الفن أو ذاك من فنون الأدب المعروفة.² فالشعر الجاهلي هو الموضوع المتناول بالدراسة، والعصر الجاهلي وشعراؤه يخلق بيئة متحضرة بالمعنى الأدبي والفني للكلمة، والنقاد في عصور الأدب المتلاحقة والمهتمون بذلك هم من يُستفاد من نظرهم وملاحظاتهم؛ وبالتالي نرmi في هذه الورقات إلى إبداء أهم رأيين متقابلين حول الشعر الجاهلي ومناقشتهما، أي بين شك فيه على الجملة كما نلحظه عند طه حسين، وبين مثبت لمصادره وموثق لها عند ناصر الدين الأسد.

أولا : " الشعر الجاهلي" موضوع الدراسة :

إذا نظرنا بالتحديد إلى موضوع الدراسة - أي الشعر الجاهلي- فإنه هو الآخر من الناحية النقدية يثير قضايا تتعلق بجوهره، يقول محمود شاكر : " وعندي أن أكبر القضايا التي يثيرها أمر الشعر الجاهلي ثلاث قضايا : القضية الأولى : قضية عُمر الشعر الجاهلي الذي وقع إلينا، وهي قضية متفرعة عن أولية الشعر نفسه في لسان العرب.

القضية الثانية: قضية شعراء الجاهلية المعروفين، وما انتهى إلينا من أشعارهم، ومقدار هذا الشعر.

والقضية الثالثة : قضية وضع الشعر ونحله شعراء الجاهلية، أهى صحيحة أم باطلة ؟ فإن صحت، فأين هذا المنحول فيما وصلنا عن العلماء الرواة من أشعارهم.³

وتبدأ النصوص الموثوقة، في ما بين أيدينا من مصادر، اعتبارا من القرآن الكريم، قفزا إلى مدونات العصر العباسي، التي سجلت حتى مرويات العصرين الإسلامي والأموي، فضلا عن العصر الجاهلي.

ويشير بعض الناقدين⁴ إلى أن مشكلة الحكم على الأدب الجاهلي تكمن من حيث الصحة والزيف في محاكمة من حاكمه إلى النصوص المتأخرة عنه والمختلفة عنه في الطبيعة، ذلك أن بعضهم يشك في ذلك الأدب إذا وجده مشابها للقرآن الكريم في مضمونه ولغته، ويشك فيه إذا لم يجد فيه ما يجده في القرآن

من مضامين، وكذلك إذا وجده شبيها بشعر العصور الإسلامية الأولى والمتأخرة، ويشك فيه إذا وجده مضطربا مفككا، وإذا وجده على نسق كذلك.

لأننا نقيس مجهولا على معلوم، فترجّح كفة المعلوم ويصيب الشك ما هو مجهول. فالمجهول يدعو إلى الريبة والخوف دائما، بينما المعلوم يوحي الثقة عادة، أو يبدو أقل حملا على الشك من المعلوم.⁵

بناء على ذلك فإن سؤالا هاهنا نطرحه كما طرحه بعض النقاد :⁶ تُرى هل لا تزال مشكلة الشك بأدب الجاهلية راهنة تستحق تقليب النظر وإجهاد الفكر من جديد ؟ إن الجواب عن ذلك يكمن في ما نجده من خلافات بين أساتذة المادة، واتهام بعضهم لبعض في هذا الموقف أو ذاك، وحماسة بعض الطلاب الذين تأثروا بتلك الخلافات، في أن يجادلوا أساتذتهم جدلا لا يخلو من تعصب أحيانا، وميل بعضهم إلى مسايرة أساتذتهم في هذا الاتجاه أو ذاك مسايرة تفتقر إلى الموضوعية مرة وقد تتسم بالمبالغة والسذاجة وإطلاق أحكام بلا سند مرة أخرى. فكيف كانت بدايات هذا الشك لدى النقاد في الشعر الجاهلي.

ثانيا : بدايات الشك في الشعر الجاهلي :

في إشارة له إلى بروز نواة الشك تلك لدى القدماء، يؤكد د. عبد الرحمن البدوي في مقدمة كتابه "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي" أصالة فكرة انتحال الشعر الجاهلي في فكرنا العربي، مستكرا لما تعرض له طه حسين من انتقادات حادة في عصره، يقول: " كلما أتذكر الحملة الشعواء الهوجاء التي أثّرت حول كتاب " في الشعر الجاهلي " لطله حسين... فإن عجبي لا ينقضي... لأن ما قاله عن انتحال الشعر الجاهلي، وفساد روايته ورواياته، وما أضيف إليه وحذف منه، هو كلام سبق أن قاله وأشبع القول فيه علماء الأدب واللغة القدماء منذ القرن الثاني للهجرة وخصوصا في القرنين الثالث والرابع. ويكفي المرء أن يتصفح الصفحات الأولى من كتاب "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي (134 - 213هـ) ليقرأ فيه مثلا :

- قوله : " وفي الشعر مصنوع مفتعل وموضوع كثير لا خير فيه " ⁷
- وقال أيضا : " وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه : محمد بن إسحاق بن يسار...فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر، أتينا به فحملته؛ ولم يكن ذلك له عذرا.. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ومن أدّاه منذ آلاف السنين ؟" ⁸
- ونقل ابن سلام قول ابي عمرو بن العلاء " ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيّتهم بعربيّتنا، فكيف على عهد عاد وثمود، مع تداعيه ووهيه، فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق ومثل ما روي الصُّحُفِيُّونَ، ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم." ⁹
- وقال: " فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب (أي الشعر)، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤوّلوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل من ذلك، وذهب عليهم منه كثير... قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولوجاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير." ¹⁰

فهذه تُتفّ من النصوص التي وردت في كتاب ابن سلام الجمحي لتدل بوضوح على تشكيكه في صحة نسبة من الشعر الذي وصلنا، مع ملاحظة عدم إطلاق حكمه على الشعر الجاهلي بالكلية.

- أما في العصر الحديث فيعتقد غير قليل من النقاد أن طه حسين هو من أوائل المحدثين الذين حملوا شعار التشكيك الصارخ في الشعر الجاهلي، وذلك

من خلال كتابه في الشعر الجاهلي 1926م أو بديله "في الأدب الجاهلي" 1927م. ولكن السؤال هاهنا هو ما مدى أصالة هذه الفكرة لديه، وهل هو متأثر فيها بالمستشرق الإنجليزي مرجوليوث^{1 1} ؟ في الإجابة عن ذلك يفيدنا د. عبد الرحمن بدوي بقوله : "إن د. طه حسين في كتابه ذاك لم يكن أول باحث في العصر الحديث بحث في صحة الشعر الجاهلي وأسباب الانتحال فيه، بل كان على العكس من ذلك تماما : آخرهم."^{1 2}

ذلك أن أول الباحثين المحدثين الذين تناولوا هذا الموضوع بالتفصيل هو شيخ المستشرقين الألمان ثيودور نيلدكه (1836- 1931) سنة 1861م، فاستعان بنتائج البحث في اللغات السامية وما كشفت عنه النقوش الحميرية والسبائية وفي اليمن الجنوبية عموما، وبالمقارنة بما حدث في الآداب الأخرى : الأدب اليوناني، وخصوصا بالنسبة إلى هوميروس، وفي الأدب الألماني ليسوق الأسباب الدقيقة التي تؤيد وتوسع من نطاق النتائج التي وصل إليها ابن سلام الجمحي بنظرة ثاقبة لكنها غير مؤيدة بالأسانيد التاريخية. وأضاف إلى دواعي الانتحال الاهتمام بالداعي الديني، الذي لم يمسه ابن سلام إلا مساه خفيفا. وهو الداعي الذي سيعزو إليه مرجوليوث أهمية ربما كان مبالغا فيها.^{1 3}

ثم تلاه فلهم ألفرت (1828- 1909) سنة 1872م فأشبع القول المفصل في قصائد من هذا الشعر الجاهلي، ومن أهم ما نشر منه حتى الآن : "العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين" وانتهى إلى تحديد أدقّ للأبيات والقصائد التي عدّها أو رجّح أنها منحوالة في هذه المجموعة. وكذلك استقصى أخبار الرواة ونقدتهم وبخاصة "خلف الأحمر" ليتقدم ببحثه كثيرا في هذا الميدان. ثم بعده بسنوات المستشرق جولد تسيهر (1850- 1921) وكذلك تشالزليال (1845- 1920) في كتاب المفضليات، والأهم ما كتبه "مرجوليوث" بعد ذلك في 1925م والذي تقدم كثيرا ببحثه هذا حيث استغل نتائج النقوش الحميرية والعربية الجنوبية، ولكنه ركز خصوصا على الدوافع الدينية في انتحال الشعر الجاهلي والتغيير في روايته زيادة أو نقصا أو تحريفا،

وقد رد عليه المستشرق ارش برونليش الألماني(1892- 1945) في السنة التالية 1926م.¹⁴

ومن خلال ذلك يتبدى لنا أن موضوع الشعر الجاهلي قد شغل الباحثين الأوروبيين منذ زمن، توصلوا فيه إلى نتائج لا تزيد كثيرا عما وصل إليه ابن سلام قبل ذلك بقرون. إنما امتازت أبحاثهم بالاستناد إلى الأسانيد التاريخية الموثقة، وإلى نتائج اكتشاف لغات جنوب شبه الجزيرة العربية بفضل ما جمع من نقوشها، وما أدى إليه البحث المقارن في تاريخ أوليات الآداب في الأمم المختلفة، كما امتازت باستعمال النقد التاريخي والفيلولوجي الدقيق على النحو الذي سبقهم إليه في الأدب اليوناني علماء اليونانيات.¹⁵

ومن المستبعد أن يكون طه حسين قد اطلع على مقالة مرجليوث لأن بين نشرها في يوليو 1925م وصدور كتابه "في الشعر الجاهلي" في مارس 1926 ثمانية أشهر وهي مدة قد لا تكفي لطبع الكتاب فكيف بتأليفه فوق ذلك ؟ ولهذا فدعوى الأخذ عنه أو تأييده ضعيفة، والظاهر أن ثمة مجرد توارد افكار، سببه المحتمل اطلاع المؤلفين على مقالات المستشرقين قبلهما - وكلاهما يذكر بعضهم في بحثه - ثم تطوير تلك الأفكار.¹⁶

فلغة الكتابة والقواعد الواحدة عند نولدكه ولغة قريش التي جاء بها القرآن والحديث في رأي ألفرت، أصبحت عندهما لغة القرآن، والأفكار والقصص القرآنية عند نولدكه وألفرت وكارلو ألفونسو نلينو أصبحت دين الإسلام عند مرجليوث وطه حسين، وقلة الأفكار الوثنية في الشعر الجاهلي عند الأولين، وغياب الفكر اليهودي عند نلينو أصبح غيابا لصورة البيئة أو الحياة الجاهلية عند الآخرين، وغياب الشعر اليمني باللغتين العربية والحميرية عند نلينو، أثار لدى طه حسين مناقشة لشعر المنتسبين إلى اليمن وللغتهم الشعرية عند الحميرية. وهناك فروق ظاهرة بين أفكار طه حسين ومرجليوث، منها عدم قول طه حسين بالتناسب الحضاري بين الشعر ومستوى تقدم المجتمع، ولا بالتطور الموسيقي الذي يفترض سبق الرقص والموسيقى للشعر المتقن، وهو لذلك لم ينته

إلى اعتبار الشعر لاحقا للقرآن ولكن سابقا له ، بل رأى أن ما يمكن التسليم بصحته من الأدب الجاهلي قليل جدا.¹⁷

ثالثا : منهج الشك عند طه حسين ونتائج تطبيقه:

يوضح لنا طه حسين طريقته في النظر لتراثنا عموما بقوله كما في كتابه " في الأدب الجاهلي " : " بين أيدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها إلى الحق. فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة معبدة ، والأمر عليهم سهل يسير. أليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار... على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الإسلام وقالت كثيرا من الشعر؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن هؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها ؟ أليس قد أجمع هؤلاء العلماء على أن هؤلاء الشعراء مقداراً من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم روايتهم وتناقله عنهم الناس ، حتى جاء عصر التدوين فدون في الكتب وبقي منه ما شاء الله أن يبقى إلى أيامنا ؟ " ¹⁸

ثم يقول : "وأما أنصار الجديد ، فالطريق أمامهم معوجة ملتوية... ذلك أنهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان واطمئنان... وقد خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا...ولعل أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء اطمئنانا ، هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي فيتجاهلوا إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه ، ويتساءلون : أهنالك شعر جاهلي؟ فان كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟.. ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها إلى روية وأناة وإلى جهود الجماعات العلمية لا إلى جهود الأفراد" ¹⁹

❖ لقد تركز طرح طه حسين في كتابه على دراسة مشكلة الوضع والنحل في الشعر الجاهلي. و ذلك في نقاط رئيسة ، أهمها : تحديد طبيعة المنهج الذي قرر اتباعه في دراسة الشعر الجاهلي. وهو منهج الشك الذي استحدثه "ديكارت" للبحث عن حقائق الأشياء في أول العصر الحديث. وأساس هذا المنهج هو تجرد

الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي
الذهن مما قيل فيه خُلُوا تاماً. ²⁰

وإذا به ينتهي إلى افتراض أن الأدب الجاهلي عموماً لا يمثل هذه الحياة في
شيء، يقول "فإن أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرئ
القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، لأنني لا أثق
بما ينسب إليهم. وإنما أسلك إليها طريقاً أخرى، أدرسها في نص لا سبيل إلى
الشك في صحته، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي...
وأدرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه، وفي شعر الشعراء
الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي
ألّفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام." ²¹

❖ ولكن ما الذي توصل إليه طه حسين بعد تطبيق منهجه في الشك؟، توصل
طه حسين إلى الفصل بهذا المنهج بين دراسة الشعر الجاهلي وبين المعارف
المتداولة في أخبار الرواة، ليلتمس هذه المعارف وغيرها في الشعر نفسه بوصفه
مرآة تنعكس عليها صور الحياة الجاهلية في أشكالها المختلفة. وهو بهذا أراد
أن يمتحن صحة هذه المدونة العربية الجاهلية عبر استجابتها لهذه الصورة
المنعكسة على مرآته للعصر الجاهلي ومدى وضوحها.

- يلاحظ طه حسين خلافاً واضحاً بين لغة الشعر الجاهلي وبين تلك
اللهجات المعروفة في شمال الجزيرة وجنوبها، واتفاقاً واضحاً كذلك بين لغة
الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ويتخذ من هذا الخلاف وهذه المشابهة سبباً لرفض
هذا الشعر والطعن في صحة روايته. ²²

وهذه الملاحظات نفسها مضمّنة في بحث المستشرق مرجليوث، حيث ينتهي
الباحثان معاً إلى أن الشعر الجاهلي قد كتب بلغة القرآن، وأن هذه اللغة التي
نعرفها والتي نزل بها القرآن الكريم قد ظفرت بمكانتها وأصبحت لغة أدبية
عامة بعد نزول القرآن الكريم لا قبله.

إلا أن طه حسين امتاز عن مرجليوث - وقد ألمعنا لشيء من ذلك قبلا - بالتوسع في ما بدأه مصطفى صادق الرافعي من بيان أسباب الوضع والنحل فردهما إلى العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية، وإلى الأهواء الدينية التي تحاول إثبات صحة الرسالة الإسلامية، وتعظيم قدر النبي وآل بيته وأصحابه، أو تحاول شرح القرآن أو تفسير ألفاظه، أو تأييد مذاهب علمائه، وإلى القصص الذي يُعمل على تزيينه أو توضيح اسم من أسماء شخصياته بإضافة الشعر إليه، وإلى الشعوبية التي نجم عنها أشعار في تفضيل شعوب على شعوب أخرى، ولا سيما تفضيل العرب على الأمم المغلوبة أو العكس، وإلى كذب الرواة الماجنين المسرفين في اللهو والعبث والمنصرفين عن الدين، أو المتكسبين بالرواية على الأقل.²³

- كما ناقش طه حسين أسباب نحل الشعر ووضعه²⁴ وحصرها في دوافع مختلفة من السياسة²⁵ والدين²⁶ والقصص²⁷ والشعوبية²⁸ وعمل الرواة²⁹.

وشرع في دراسة تطبيقية خصصها لشعراء مُضر واليمن في الجاهلية - وهذا أيضا مما تميز فيه عن دراسة مرجليوث³⁰ - ، فطفق يتابع أخبار بعض الشعراء وينقضها معتمدا على الأسباب المختلفة التي حشدها لتأكيد شكه، ورفض ما يروى عن حياة امرئ القيس وشعره وعلقمة، ومهلhel، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم من شعراء اليمن، كما شك في بعض الشعراء المضريين ورفض كثيرا من أخبارهم وأشعارهم المعروفة.³¹

- وسار طه حسين في بقية عمله - الجدير بالنظر والانتباه - وفق ما أسماه ب"المنهج المركب" للفصل بين الصحيح وغير الصحيح من الشعر الجاهلي، وهو منهج من طريقتين :

الأول إثبات زيف هذه الخصائص الشائعة عن طبيعة الشعر الجاهلي لغة ومعنى وصورا شعرية، بوصفها خصائص فنية تميز وحدها الشعر الجاهلي من غيره من شعر العصور الأخرى، فرفض غرابة اللفظ وبداعة المعنى، مقررًا أن الشعر الذي

يستعد للنظر في صحته : هو هذا الذي يناسب لغة القرآن وما صح من الحديث : متانة لفظ ورصانة أسلوب في غير تكلف للغريب ولا إسراف في الحوشية، وسهولة مأخذ وقربا من الفهم في غير إسفاف ولا دنو من السخف. على أننا لا نقول إننا حين نجد هذا الشعر المتين نقطع بصحته، وإنما نقول نستعد للنظر في صحته. فمن الذي يقطع لنا بأن هذا الشعر الذي سهل لفظه ومعناه في رصانة ومتانة لم ينحله شاعر إسلامي أو راوية ماهر في النحل ؟؟

والطريق الثاني دراسة شعر طائفة بعينها من شعراء الجاهلية دراسة نقدية تحليلية، غايتها استخلاص الخصائص الفنية المشتركة لأشعارهم بوصفهم شعراء قد ارتبط بعضهم ببعض ارتباطا اجتماعيا وبيئيا واضحا، ذلك أن روايتهم لأشعار بعضهم البعض قد اتصلت اتصالا وثيقا فيما بينهم مما خلق منهم ما يصح أن نسميه بلغة النقد الحديث "مدرسة شعرية".³²

- وهو في نظره لما أسماه بمدارس فنية بين شعراء الجاهلية ينطلق في البحث عن الخصائص الفنية لتلك المدارس مقتنعا بأن العناية بالسند لا تكفي لتصحيح ما يصل إلينا من طريقه، ولا بد لنا من تجاوز هذا النقد الخارجي إلى نقد داخلي، يتناول النص الشعري نفسه في لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته. ومع ذلك فهو مقتنع بأن المقياس الذي يسعى إلى استنباطه مما صحت نسبته إلى شعراء هذه المدرسة لا يستطيع أن ينتهي بنا إلى يقين أو شبهه، إذ لا يمكن أن نقول في يقين أو ترجيح علمي إن هذا النص ملائم من الوجهة اللغوية للعصر الجاهلي أو غير ملائم، لأن لغة هذا العصر لم تضبط ضبطا تاريخيا ولا علميا صحيحا.³³

* هذا على الإجمال من أبرز ما قال به طه حسسن في نظريته في الشك، لكن هل وُفق في تعامله مع التراث ومحاولته التوفيق بين القديم والجديد بمنهج علمي حديث؛ لعل القراءة العميقة لكتاب طه حسين - وفق رأي نصر حامد أبوزيد³⁴ - تكشف عن حضور منهجين متجاورين لم يتم التركيب منهما : منهج الشك الديكارتية المتمثل في أطروحة أن الشعر الجاهلي لا يعكس الحياة الجاهلية

بحيويتها وثرائها وعنفوانها كما يعكسها القرآن، والذي يمثل بالنسبة لطله حسين "مرجعية تاريخية" للحياة الجاهلية. وهناك منهج علماء الحديث في نقد الرواية كما يتمثل في نقد محمد بن سلام الجمحي للشعر الجاهلي. وقد ظل هذان المنهجان في حالة تجاوز سكوني مما أعطى مبررا لمهاجمي طه حسين إلى ادعاء أنه نقل عن "مرجليوث" من جهة، وإلى أنه لم يقل جديدا عما قاله ابن سلام الجمحي من جهة أخرى.

إلا أن معادلة التوفيق كما مثلها محمد عبده قد تحركت قليلا عند طه حسين، فلم يعد الغرب بالنسبة إليه أفكارا تحتاج لإيجاد مثيل لها من التراث الإسلامي، بل تحول إلى "أداة" منهجية لتحليل التراث وفهمه ونقده، وقد ظل هذا التحول ماثلا في استيعاب الغرب ماثلا في الفكر العربي الحديث بمستوياته وتجلياته المختلفة حتى سقوط معادلة النهضة ذاتها سقوطا نهائيا منتصف الستينيات.³⁵

رابعا : ناصر الدين الأسد ومنهجه النقدي في "مصادر الشعر الجاهلي" :

المفكر الدكتور ناصر الدين الأسد وزير التعليم العالي الأسبق ورئيس الجامعة الأردنية الأسبق، وعضو مجامع اللغة العربية، معروف بصلته الحميمة بالشعر الجاهلي، وتزداد صلته هذه بعد قراءته كتاب طه حسين عن الشعر الجاهلي وتقوى وتشتد بعد التحاقه بكلية آداب القاهرة وتلمذته على يد طه حسين نفسه، وتشتد أكثر حين تكون رسالته في الدكتوراه حول الشعر الجاهلي، واكتشافه جوانب جديدة من قيمة هذا العصر وأهميته في دراسة الأدب العربي في عصوره المختلفة.³⁶

يرى ناصر الدين الأسد أن كتاب "في الشعر الجاهلي" قصد منه طه حسين أمرين واضحين :

أولهما : أن يهز العقل العربي ويحرمه من جموده، وأن يجدد أفكاره ويجنبه من تكراره لنفسه، وأن يدعوه إلى استحداث أفكار جديدة لا أن يجترأفكاره القديمة، وأن يحرره من عقاله ويجعله قافزا إلى عالم المعارف الحديثة.

باختصار، هذا الكتاب كان صدمة قوية للعقل العربي، أيقظه من سباته العميق الذي دام سنوات طويلة. وثانيهما أن مؤلفه أراد أن يحدث زلزلة ملفتة بين القراء تجعلهم يتنبهون لما يتم في العالم المتقدم من نهوض.³⁷

وأما ما حدث بعد ذلك فهو يعتقد أن الدكتور طه حسين ظلم فيه ظلما فادحا وحامت حوله شكوك كثيرة كانت في غير محلها. وربما كان هو المسؤول عن جانب من ذلك، لأنه أراد إثارة الرأي العام العربي حتى ولو كان الثمن فقدان راحته وهدوء باله والتهجم عليه.³⁸ وفي إجابة عن السؤال : هل يعتبر كتاب الشعر الجاهلي خطوة على الطريق الصحيح في النقد العربي ؟ يقول ناصر الدين الأسد : " بلا ريب أن هذا الكتاب له تأثيره في الدراسات الأدبية والنقدية. لقد استطاع الدارسون والنقاد العرب من خلاله أن يطلعوا على أفكار جديدة. بل إنه أحدث حياة فكرية متحركة في الدراسات الأدبية والنقدية ولهذا أعتقد أن حركة النقد العربي ظلت متأثرة به لفترة طويلة." ³⁹

❖ لقد نحى د. ناصر الأسد في كتابه مصادر الشعر الجاهلي منحا علميا دقيقا صاغ فيه آراءه وأفكاره المعارضة لآراء طه حسين. حيث غلب على دراسته المنهج التاريخي الذي يستقصي الحقائق و يربطها بظروفها الزمانية و المكانية الملائمة لها ، ووضعها في سياقها المناسب الذي يخدم البحث.

وقد أقام المؤلف فكرة كتابه على أساس أن الذين يتشككون في صحة ما لدينا من تراث الجاهلية الشعري، ينطلقون من الشك في صحة روايته لاعتمادها على المشافهة في العصر الجاهلي، وانقطاعها ما بين الجاهلية والعصور الإسلامية التالية، كما يعتمدون على ما أثير حول أمانة الرواة المسلمين في القرنين الثاني والثالث من شكوك، وذلك كله بالإضافة إلى تلك المشابهة اللغوية والمعنوية بين لغة القرآن ومعانيه، ولغة الشعر الجاهلي وبعض معانيه الإسلامية.

ومن ثم فإن فكرة المؤلف وقضيته التي يعالجها، هي توثيق ما يسميه ب " مصادر الشعر الجاهلي " التي وصل إلينا عن طريقها هذه الكثرة من القصائد

والمقطعات والدواوين، ومن ثم فإن هذا التصور العام الذي يشخص منهج هذا الكتاب يتلخص في أن المؤلف عمد إلى إثبات اتصال رواية هذا الشعر ما بين الجاهلية والإسلام، وتأصيل مناهج الرواة المسلمين في جمع الأشعار الجاهلية ونقدها وتدوينها.⁴⁰

ونستطيع أن نعد من الردود المتأخرة على مرجليوث وطه حسين أطروحة دكتوراه ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية 1956م، فحقاً جهد المؤلف في سلوك مسلك الحياد الموضوعي، حتى كاد يكتفي بجمع المعلومات وتبويبها وتجنب التحليل الجريء العميق، لكنه - كما يرى بعض النقاد⁴¹ - في النهاية لم يستطع أن يبرأ من المنهج الدفاعي ومن السعي إلى تفنيد آراء الشاكين في صحة الشعر الجاهلي، وإن بشيء من اللطف.

❖ يشتمل مؤلف د. ناصر الدين الأسد على فصول مرتبة، وأفكار منهجية تخدم فكرة توثيق الشعر الجاهلي، ومستحضرا في الوقت نفسه الأفكار المشككة التي طرحها طه حسين في العصر الحديث ومن شاكله من المستشرقين. إذ وقف في القسم الأول من الكتاب عند رواية الشعر في العصر الجاهلي، وانتهى من رصد الأخبار المتناثرة في المصادر القديمة والإشارات الواردة في نصوص هذا الشعر والتأليف بينها، إلى تأكيد أن روايته في هذا العصر قد سارت في طريقتين متصلتين وموثقتين حملها في هذا العصر حتى وصلها إلى العصور الإسلامية التالية :

الطريق الأولى : طريق الكتابة، وقد اعتمد المؤلف في إثبات كتابة الشعر الجاهلي في هذه المرحلة المتقدمة من تاريخه على إشارات الشعراء إلى الكتابة وأدواتها في أشعارهم من ناحية، وعلى تلك الأخبار المتناثرة عن اهتمام الجاهليين بهذا الجانب من معرفة الكتابة والثناء على أصحابها واعتبارها من مقومات السيادة من جهة أخرى.⁴² والطريق الأخرى : طريق الرواية الشفوية التي حمل عبئها رواة الشاعر ورواة القبيلة، وتلاميذ الشعراء من الذين كانوا يتخذون من رواية الشعر وسيلة إلى إجادة نظمهم.⁴³

وفي تأكيد هذا المسار التدليلي على ثبوت جانب الرواية والسماع، تعمق المؤلف أكثر في الباب الثالث من كتابه، فحشد مادة إخبارية وشعرية غزيرة، خلص منها إلى تأكيد أمرين هما : استمرار الرواية الشفوية ما بين الجاهلية والإسلام على أيدي أبناء الشعراء وأبناء القبائل وغيرهم، وازدهار حركة تدوين الشعر والأخبار في بيئات المفسرين ورواة الحديث. وهي حركة أثمرت كثيرا من المدونات في التفسير والحديث والسير والأخبار والشعر، وكانت الأساس الذي اعتمد عليه رواة القرنين الثاني والثالث الهجريين في تدوين الشعر ورواية الأخبار. وقد تابع المؤلف بعد ذكره لذلك هذا الاتجاه من تأصيل رواية الشعر، وتأكيد استمرارها ما بين الجاهلية والإسلام وتوثيق صحتها، فعرض لمنهج البصريين والكوفيين في الرواية والتدوين، وطبيعة ما بينهما من خلافات في قبول ما يروى من الشعر واللغة والحديث أو رفضه، حاملا على هذا الاختلاف في المنهج كل ما ينسب إلى الرواة من وضع وتزييف في الشعر الجاهلي.

أما الباب الرابع من الكتاب: الشك في الشعر الجاهلي (الوضع والنحل)، فإنه يشكل واسطة العقد بالنسبة لهذا العمل الأدبي الرصين، فهو المقصود من كل هذا، إلا أنه أبقاه في آخر الحديث عن مصادر الشعر الجاهلي بعد ذكره لما سبق، حتى يكون التسلسل المنطقي مستلزما لذكر الإثباتات والبراهين على القضية التي ينوي التأسيس لها، ثم يردف القول بما أثير حول الموضوع من شبهات. حيث شرع في الحديث عن المشكلة الهومرية ليثبت أن " الشك في الأدب القديم، الذي أنشأته الأمم في جاهليتها وبدأوتها، ظاهرة لا تقتصر على الشعر العربي وحده، ولكنها عامة تكاد تشمل الأدب القديم كله عند جميع الأمم التي كان لها أدب معروف مدروس " 4 4، عاقدا المقارنة بين الشعر الجاهلي والهومري باعتبار أنهما من أقدم ما وصل إلينا من الشعر، " كونهما مصدران تاريخيان من مصادر الحياة الجاهلية عند هاتين الأمتين، بل ربما كانا - حتى الآن - المصدرين الأساسيين اللذين يعتمد الدارس عليهما في فهم هذه الحياة-

في كثير من جوانبها - فهما متصلان متسقاً".^{4 5} وأنها قد طالتهما الشكوك نفسها حول كيفية نقلهما وروايتهما شفاهاً أو كتابة.^{4 6}

ثم أقبل موضعاً لقضية وضع الشعر الجاهلي ونحله عند الأقدمين^{4 7}، معتبراً الوضع والنحل والانتحال ظواهر أدبية عامة في النسب والحديث، وفي الشعر الجاهلي منذ الجاهلية وصدر الإسلام، وكذلك ذكر تنبؤ القدامى للوضع والنحل وذلك في نصوص كثيرة لهم من أمثال ابن هشام في السيرة النبوية وابن سلام خصوصاً في طبقات فحول الشعراء. وبعدها تطرق إلى أهم ما سطره المستشرقون من آراء حول الشعر الجاهلي، مركزاً على تفصيل ما أتى به مرجوليوت حول الموضوع^{4 8}.

ليصل بعد ذلك إلى عرض آراء العرب المحدثين في قضية الانتحال وعلى رأسهم طه حسين مستعرضاً أهم الردود التي كتبت آنذاك عما نشره في كتابه "الأدب الجاهلي".^{4 9} منبهاً إلى أسبقية الرافعي في الحديث عن الموضوع سنة 1911م في كتابه "تاريخ آداب العرب" والذي رد وضع الشعر إلى بواعث أهمها :
تكثر القبائل لتعتاض عما فقدته بعد أن راجعت الرواية؛ وشعر الشواهد
لحاجة العلماء إليه في تفسير الغريب ومسائل النحو؛ وكذا شواهد المعتزلة
والمتكلمين على مذاهبهم؛ وشواهد المخبرين القصاص على ما يلفقونه من
أساطير، والاتساع في الرواية والزيادة على قصائد فحول الشعراء...^{5 0}

وهذه النقاط بالذات هي ما سطره ابن سلام نفسه في طبقاته يقول ناصر الأسد " وهكذا نرى أن الرافعي قد دار مع القدماء من العرب في فلکهم وسرد ما رووه من أخبار... وحصّر الموضوع في الدائرة نفسها التي حصّره فيها القدماء :
لم يحمل نصاً أكثر مما يحتمل، ولم يعتسف الطريق اعتسافاً إلى الاستنتاج أو الاستنباط ولا إلى الظن والافتراض، ولم يجعل من الخبر قاعدة عامة، ولا من الحالات الفردية نظرية شاملة".^{5 1}

ولكن الأمر اتخذ طابعاً مختلفاً مع طه حسين بعد ذلك، حيث خلق منه " شيئاً جديداً، لم يعرفه القدماء، ولم يقتحم السبيل إليه العرب المحدثون من

قبله، ثم أنكره بعد كثير من المحدثين إنكاراً خصباً يتمثل في هذه الكتب التي ألفوها للرد عليه ونقض كتابه. وقد استقى د. طه حسين أكثر مادته من القدماء - حيث يستشهد ويتمثل بالأخبار والروايات - من العرب القدماء، وسلك بها سبيل مرجوليوث في الاستنباط والاستنتاج، والتوسع في دلالات الروايات والأخبار، وتعميم الحكم الفردي الخاص واتخاذ قاعدة عامة، ثم صاغ تلك المادة وهذه الطريقة بإطار من أسلوبه الفني وبيانه الأخاذ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من " أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين " ⁵²

خامساً - ثغرات في منهجِي الشك والتوثيق :

لقد انتهى ناصر الدين الأسد إلى التأكيد على معرفة الجاهليين للكتابة والنقط والإعجام وعلى وجود معلمين بينهم ومدارس، وعلى تدوينهم الكتب الدينية بمختلف اللغات، وكتابتهم مختلف ما يحتاجونه في الحياة، وعلى أن بعض الشعر قد قيد بالكتابة منذ الجاهلية بقرينة ما ورد في الشعر نفسه، وبديل وجود الصحف في عصر إسلامي مبكر ومساعدتها على تدوين الحديث والقرآن، وبديل الاعتماد في التفسير والاحتجاج اللغوي على الشعر، وبديل تواصل الرواية من الرأوية الأخير حتى الجاهلية، واعتبر الأسد أن دواوين الشعراء التي حققها القدماء هي وحدها المصدر الموثوق به، وقال بالقبول المبدئي بالشعر الذي قبلته مدرستا البصرة والكوفة معاً، ثم بإخضاع ذلك الشعر للدراسة الفنية، فما بدا منه اتخذ مقياساً لمحاكمة سائر الشعر، وهذا حل تبسيطي اقترح ريجي بلاشير (1900- 1973) قريباً منه، حين يئس من الظفر بالنموذج المعياري، واقترحه الأسد لظنه أنه وجد الطريقة المثلى للظفر بذلك النموذج. ⁵³

ويرى بعض النقاد ⁵⁴ أنه على الرغم من هذا التماسك العلمي الواضح لدى ناصر الدين الأسد، فإنه قد انطلق مثل غيره من الدارسين المحدثين الذين درسوا رواية الشعر الجاهلي وشكوا في صحتها، من نفس المنطلق الذي يؤمن بفكرة

مسبقة يحشد لتأييدها نصوصا وروايات يتعسف في تأويلها لتدل قسرا على مفهوم بعينه، ويؤسس على الخبر المفرد قاعدة عامة، لا يحتملها الخبر نفسه، ولا تبررها الحياة القديمة. أو قل إن المؤلف قد وقع في الهفوات العلمية نفسها التي نبه عليها في نقده لآراء مرجليوث ونظرية طه حسين.

ومثال ذلك ما ذهب إليه من التدليل على وجود مدونات تعود إلى العصر الجاهلي، معتمدا في تأكيد هذا الفرض على تلك الإشارات المتناثرة في الشعر عن الكتابة والكُتَّاب، وعلى أخبار منسوبة إلى حماد الراوية تدل على امتلاكه مدونات للشعر الجاهلي من تلك التي كانت محفوظة في قصر النعمان بن المنذر، كما يعتمد على أخبار متواترة عن كتابة بعض القصائد العربية المعروفة بالمعلقات وتعليقها في الكعبة، ونحوه مما اتخذ دليلا قاطعا على كتابة الجاهليين لأشعارهم وحفظها عن هذا الطريق.⁵⁵

والإشكال أنها لا تعدو أن تكون فروضا في الواقع لا تثبت للنقد العلمي الموثق، لأنها لا تضع في حسابها الفرق بين معرفة الجاهليين بالقراءة والكتابة، تلك المعرفة المحدودة القليلة، وبين استخدامها في تدوين الأخبار والأشعار وروايتها، فلم يحدثنا الرواة بشيء موثق أو غير موثق عن مدونات جاهلية من الشعر أو النثر كانت بين أيدي المسلمين في القرن الأول أو الثاني للهجرة، وأن الأخبار القليلة التي تتحدث عما يسمى بـ "تعليق المعلقات" و "مدونات النعمان" التي أحرزها حماد الراوية لا تفيد الدارس المتثبت في هذا الجانب من تاريخ الرواية الجاهلية، وكل قيمتها وقيمة غيرها من الإشارات الواردة في الشعر الجاهلي عن الكتابة في أنها تؤكد معرفة هذه البيئة بالكتابة والقراءة، ولكن في تلك الحدود الضيقة التي كانت تتصل بتدوين عهودهم ومواثيقهم، وذلك أن ظروف الجاهليين لم تكن تمكنهم من استخدام الورق على ذلك النطاق الذي يتسع لتدوين هذا التراث الشعري العظيم الذي كان يسيل على ألسنة الشعراء الجاهليين سيلا.⁵⁶

ويلاحظ د. إبراهيم عبد الرحمن أنه على الرغم من تلك الروايات والأخبار الغامضة التي تتسبب للجاهليين بعض المدونات الشعرية، فإنه لا توجد إشارة واحدة منسوبة لواحد من علماء الرواية المشهورين من رجال الطبقة، يذكر فيها أنه كانت لديه من هذه المدونات شيء أو أنه روى منها شيئاً، فيما عدا اثنين من الرواة : حماد الراوية وابن الكلبي، وهما راويتان قد ثارت حولهما شكوك صريحة، وحمل عليهما وزر ما أصاب رواية الشعر والأنساب والأخبار من نحل وتزييف. ولكن هل تثبت هذه الأخبار للنقد العلمي وهل تصلح دليلاً علمياً على كتابة الشعر الجاهلي في مدونات كانت لدى رواة القرن الثاني الهجري ؟ إذ من الغريب أن ينفرد حماد وحده بمثل هذه المدونات التي كانت محفوظة في قصر النعمان بن المنذر، ثم لا نراه يثبت روايته للشعر عن هذه المدونات، وخاصة فيما كان يُحمل فيه عليه من التزديد في رواية الشعر والأخبار.⁵⁷

❖ وفي المقابل فضلاً عن الردود الكثيرة التي حفلت بها المكتبة العربية إزاء ما سطره طه حسين من شكوك صارخة حول الشعر الجاهلي، إلا أنه بإمكاننا طرح أسئلة منطقية حول ما أتى به.

ذلك أن الادعاء بأن الشعر الجاهلي كله موضوع، فيه غبن للشعر وتجنُّ على الشعراء وحكم جائر، ووجود رواية فاسد المروءة مثل حماد، ليس دليلاً ولا حجة على نحل الشعر الجاهلي كله، ولا يمنع ذلك من وجود أبيات نحلت ودست على بعض الشعراء، ولكن الأغلب هو من شعر الشعراء الذين قالوه، وغير معقول أن يضع الوضاعون، هذا التراث الضخم كله، وفي شتى الأغراض، لتشمل مخيلتهم كل تلك الفنون الجميلة.⁵⁸

ثم إن الذين قرضوا الشعر الجاهلي من شعراء ذاك العصر ونحلوه كانوا قد عاشوا في الجاهلية نحو قرنين من الزمن، ثم عاشوا بعد الجاهلية مثله من الزمن، فهم إذن أصحاب شذوذ في أعمارهم وأصحاب شذوذ في قدرتهم على الإنتاج الأدبي، وهذا فرض خيالي بحث، لأن الرواة معروفو المولد والنشأة.⁵⁹

وبخاصة أن الشعر كان له وزن عظيم في هذه الحقب ومنزلة سامقة للشعراء، فمن ذا يقرض ذلك الشعر، أو تجود قريحته بذلك الخيال ثم ينسبه بعد ذلك لغيره، بالإضافة إلى كل ما نلمسه في هذا الشعر من صدق عاطفة وحرارة شعور وواقعية، تؤكد أنه نتاج قرائح هؤلاء الشعراء في أغلبه على الأقل.⁶⁰

وفي هذا الصدد يقول شوقي ضيف: "ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة، ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء. وقد يغلب المنتحل الموثوق به، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق." ⁶¹

دون أن نُغفل كذلك المستشرقين الذين نظروا لفكرة الشك مثل مرجوليوث فقد تعقبهم مستشرقون آخرون، مثل بروينليش ولايل، " واحتج عليه الأخير في مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر - على فرض التسليم بذلك - كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها. ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه، إذ لا يمكن أن يحاكو شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة، وإذن لا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه، وحقا دخله انتحال أمثال حماد وخلف، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة." ⁶²

ولقد كتبت الكثير من الردود حول ما أثاره طه حسين من شكوك حول صحة الشعر الجاهلي ⁶³، كما حاول ناصر الدين الأسد الاستفادة منها في رده عليه، فقد عتبوا عليه أنه لم يلتزم بمنهجه في الشك الذي أخذه عن "ديكارت"، إذ اطمأن إلى كثير مما يروييه صاحب الأغاني وغيره، وأورد كثيرا من الأخبار دون تمحيص أو نقد. ولعل بحثنا هذا لا يكفي لتفصيل المقال، وإنما هي إشارات للموضوع وتسطير لخطوطه العريضة.

يتبين لنا أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير غير أن ذلك لم يكن غائباً عن القدماء، فقد عرضوه على نقد شديد، تناولوا به رواته من جهة وصيغته وألفاظه من جهة ثانية. أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق، ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت، فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه، وإنما نشك حقاً فيما يشك فيه القدماء ونرفضه، أما ما وثقوه ورواه أثباته من مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد فحري أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته. ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض ما روه وفق أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن، كأن يروى لشاعر شعر لا يتصل بظروفه التاريخية أو تجري فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته، أو يضاف إليه شعر إسلامي النزعة، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا. " 64

• ما توصلت إليه الدراسة من نتائج :

في الختام تتبدى جملة من النتائج التي يمكن تسطيرها في عجالة، بعد اعتماد منهج مقارنة بين ما سجله كل من طه حسين ومعاصره ناصر الدين الأسد عن الشعر الجاهلي، وإن كنت أعتقد أن هذا الموضوع لا يزال مفتوحاً على كثير من البحث والدراسة، وأن الوصول إلى أحكام قطعية في كل فروع هذه القضية ليس بالأمر السهل كما يبدو، وبالتالي فإنني أسجل ما يأتي :

1- قضية الشك في الشعر الجاهلي والانتحال فيه من المهمات في النقد الأدبي قديماً وحديثاً، حيث شغلت القدماء والمحدثين والمستشرقين على حد سواء، ولا تزال كذلك لحد الساعة، وهو بحث تتعلق به عدد من القضايا الأدبية والدينية الحساسة.

2- كان ابن سلام الجهمي من أوائل من وضع نواة نظرية الشك في الشعر الجاهلي، وذلك على نحو معتدل فرّق فيه بين شعر صحيح النسبة، وشعر

موضوع مصنوع، وشعر يشك في نسبته. إذ غلب على دراسته المنهج التاريخي، مصنفًا الشعراء زمانيا ومكانيا.

3- كلُّ من دراسة طه حسين وناصر الدين الأسد حول الشعر الجاهلي، ترجع إلى تناولهما الموضوع بأسلوب علمي محدث، يَصْدُرُ عن رؤية تضطلع بما توصلت إليه البحوث الحديثة في الكتابة والنقوش وغيرها، مع غلبة المنهج التاريخي في استقصاء الحقائق واستحضار السياق لدى ناصر الأسد، ومنهج الشك الديكارتى لدى طه حسين الذي لم يهمل المنهج التاريخي بدوره.

4- يرجَّح عدم استقاء طه حسين نظريته بتفاصيلها عن المستشرق مرجليوث، بل كلاهما متأثر بكتابات العرب القدامى في الموضوع إجمالاً، وبكتابات المستشرقين المحدثين الذين سبقوهما بالتناول، تفصيلاً.

5- يلحظ طه حسين أن الشعر الجاهلي جملة لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين، وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسدين والمحدثين والمتكلمين. و أن ثمة خلافا واضحا بين لغة الشعر الجاهلي وبين تلك اللهجات المعروفة في شمال الجزيرة وجنوبها، واتفاقا واضحا كذلك بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ليتخذ من هذا الخلاف وهذه المشابهة سببا لرفض هذا الشعر والطعن في صحة روايته.

6- بالنسبة لناصر الدين لأسد فإنه ألح على إبراز: استمرار الرواية الشفوية ما بين الجاهلية والإسلام على أيدي أبناء الشعراء وأبناء القبائل وغيرهم، وازدهار حركة تدوين الشعر والأخبار في بيئات المفسرين ورواة الحديث. وهي حركة أثمرت كثيرا من المدونات في التفسير والحديث والسير والأخبار والشعر، وكانت الأساس الذي اعتمد عليه رواة القرنين الثاني والثالث في تدوين الشعر ورواية الأخبار.

7- بعد المقارنة والنظر يبدو أن كلا من الكاتبين يملكان حججا عقلية جديرة بالدرس والمتابعة، معتمدان على السواء ما سطره القدماء من أصول دقيقة، وما توصل إليه المحدثون لا سيما المستشرقون من نتائج علمية ملموسة.

8- بيد أنهما في الوقت نفسه أبقيا البحث مفتوحا لمن يأتي بعدهما فيما يبدو، فما شك فيه طه حسين لا يقضي ضرورة بنفي كل ما ثبت من شعر مسجل في أمهات المصادر فالنفي ليس إثباتا في حد ذاته واعتماده منهج الشك لم يوصله إلى يقين معين في آخر البحث، أما ناصر الدين الأسد فقد حشد مادة لا بأس بها معتمدا منهجا تاريخيا فذا وأسلوبا علميا رصينا يميزه عن غيره ممن ناقش الموضوع، إلا أن عددا منها لا يعدو أن يكون فروضا في الواقع لا تثبت للنقد العلمي الموثق.

9- يظهر أن تناول قضية الشعر الجاهلي من كل جوانبها يستدعي من الباحث : اعتماد منهج الشك في بداية النظر دون شطط أو إسراف؛ استنادا إلى المنهج التاريخي الدقيق في توثيق ملابسات المادة العلمية المعتمدة وحيثياتها؛ إضافة إلى المنهج العلمي الموثق بآخر ما توصل إليه العلم الحديث، مع كثير من الموضوعية والمنطقية في البحث؛ وهذا من شأنه أن يعين كثيرا في الوصول إلى النتائج المرجوة وإثبات ما يُرجَّح قربه من الصواب.

وفي الختام يبدو أنه قد ثبت قوة المصادر التي وثقها ناصر الدين الأسد للشعر الجاهلي، باعتبار أن هذا الشعر من أهم الأدلة في توثيق الأصول اللغوية للغة العربية، نحوا وصرفا وبلاغة وصوتا وغيرها من مقومات لغوية للغة العربية؛ ثم إن القول بوضع هذا الشعر ونحله يلصق التهمة في جيل صدر الإسلام ويطعن في عدالتهم عموما، وهم نقل القرآن والحديث، أقدس النصوص الإسلامية؛ وليس عصر اكتمال لغة الشعر بعيدا عن نزول النص القرآني، وقد قيل إن أقوام الأنبياء إنما تكون معجزاتهم من جنس ما نبغوا فيه، والعرب نبغوا في فصاحة اللسان وهي ما تجسّد في شعرهم الباهر، ليكون القرآن أبلغ منه وأبين، فهذا

يعني أن الحجة القرآنية أقيمت على العرب من خلال ما صدر عنهم من شعر بليغ حرصت العرب على حفظه ونقله وروايته.

هوامش البحث :

¹ الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، إبراهيم عبد الرحمن محمد، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2000م. ص7.

² المرجع نفسه، ص8.

³ قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة، ط1، 1997م، ص10.

⁴ قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، د. مصطفى الجوزو، دار الطليعة - بيروت، ط1، 2001م، ص31.

⁵ المرجع نفسه والصفحة .

⁶ ينظر: قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، ص5.

⁷ طبقات فحول الشعراء "لمحمد بن سلام الجمحي، ج1 ص4، نشرة محمود شاكر القاهرة، 1974.

⁸ طبقات فحول الشعراء، ج1 ص7 - 8.

⁹ المصدر نفسه، ج1 ص11.

¹⁰ المصدر نفسه، ج1 ص25.

¹¹ صموئيل دايفيد مرجوليوت 1858-1940م توفر أثناء دراسته في أكسفورد على الآداب الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) وبعدها ازدادت عنايته بالدراسات العربية والسامية، كما اهتم بالتراث الإسلامي فكتب "محمد ونشأة الإسلام" وألقى محاضرات عن تطور الإسلام في بداياته. ينظر: موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، لبنان، ط3، 1993م ص546. يقول عبد الرحمن بدوي " لكن هذه الدراسات كانت تسري فيها روح غير علمية ومتعصبة، مما جعلها تثير السخط عليه ليس فقط بين المسلمين، بل وعند كثير من المستشرقين ".الصفحة نفسها.

¹² دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م، ص11.

¹³ المرجع نفسه والصفحة.

- ¹⁴ ذكر تلك المقالات مترجمة د. عبد الرحمن بدوي مع مقالات أخرى لمستشرقين درسوا الأدب الجاهلي من جوانب مختلفة، وألحق الكتاب بترجمات لكل منهم. في كتابه القيم "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي".
- ¹⁵ ينظر: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص 12.13.
- ¹⁶ قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، ص 17 - 18. وينظر: كذلك: الشعر الجاهلي قضاياها الفنية، ص 83.
- ¹⁷ قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، ص 18.
- ¹⁸ في الأدب الجاهلي، طه حسين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 3، 1933م، ص 60.
- ¹⁹ في الأدب الجاهلي، طه حسين، ص 61 - 62.
- ²⁰ ينظر: في الأدب الجاهلي، مبحث: منهج البحث ص 65.
- ²¹ المصدر نفسه: ص 68. 69. ضمن مبحث مرآة الحياة الجاهلية.
- ²² ينظر: نفسه مبحث: الأدب الجاهلي واللغة، ابتداء من ص 79. ومبحث الشعر الجاهلي واللهجات ابتداء من ص 92.
- ²³ قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، ص 18 - 19.
- ²⁴ ينظر: في الأدب الجاهلي، الكتاب الثالث: أسباب انتحال الشعر ابتداء من ص 113.
- ²⁵ ينظر: نفسه مبحث: السياسة وانتحال الشعر ص 117.
- ²⁶ ينظر: نفسه، مبحث: الدين وانتحال الشعر ص 135.
- ²⁷ ينظر: نفسه، مبحث القصص وانتحال الشعر ص 152.
- ²⁸ ينظر: نفسه، مبحث الشعوبية وانتحال الشعر ص 166.
- ²⁹ ينظر: نفسه، الرواة وانتحال الشعر ص 176.
- ³⁰ قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، ص 19.
- ³¹ الأدب الجاهلي، الكتاب الرابع الشعر والشعراء ابتداء من ص 182.
- ³² المصدر نفسه، مبحث: مقياس مركب ابتداء من ص 279.
- ³³ في الأدب الجاهلي، مبحث النقد الداخلي ص 271. وينظر: الشعر الجاهلي، د. إبراهيم عبد الرحمن: ص 85.
- ³⁴ ينظر: النص - السلطة - الحقيقة، نصر حامد أبوزيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1995م، ص 32.
- ³⁵ النص - السلطة - الحقيقة، نصر حامد أبوزيد، ص 32 - 33.

- ³⁶ ينظر: طه حسين، فكر متجدد، سامح كريمة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط 1، 2004م : ص193.
- ³⁷ ينظر: طه حسين، فكر متجدد، سامح كريمة، ص193.
- ³⁸ ينظر: المرجع نفسه، ص194.
- ³⁹ المرجع نفسه، ص190.
- ⁴⁰ ينظر: الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية، د. إبراهيم عبد الرحمن محمد، ص91.
- ⁴¹ قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، ص19.
- ⁴² ينظر: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثامنة 1996م، الباب الأول : الكتابة في العصر الجاهلي (1- انتشار الكتابة في العصر الجاهلي ص23 - 58، 2- موضوعات الكتابة وأدواتها ص59 - 103) والباب الثاني : كتابة الشعر الجاهلي وتدوينه (1- تقييد الشعر الجاهلي ص107 - 133، 2- وتدوينه: ص134 - 185).
- ⁴³ ينظر: مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد، الباب الثالث : الرواية والسماع (1- اتصال الرواية من الجاهلية حتى القرن الثاني: ص188 - 221، 2- طبقات الرواة ص222 - 254، 3- الإسناد في الرواية الأدبية: ص255 - 283).
- ⁴⁴ مصادر الشعر الجاهلي : ص287.
- ⁴⁵ المصدر نفسه، ص291.
- ⁴⁶ ينظر: للتفصيل أكثر المصدر نفسه : المشكلة الهومرية ص287 وما بعدها.
- ⁴⁷ ينظر: للتفصيل أكثر المصدر نفسه : وضع الشعر الجاهلي ونحله عند الأقدمين ص321 وما بعدها.
- ⁴⁸ ينظر: المصدر نفسه ص352 وما بعدها.
- ⁴⁹ ينظر: المصدر نفسه : النحل والوضع في الشعر الجاهلي، آراء المحدثين العرب ص377 وما بعدها.
- ⁵⁰ ينظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 2000م، ج 1 ص211. الباب الثاني الرواية والرواة، فقد ذكر فيه كثيرا من المباحث المهمة منها الوضع و الصنعة في الرواية ص270، وضع الشعر: ص277 وما بعدها.
- ⁵¹ مصادر الشعر الجاهلي، ص379.
- ⁵² مصادر الشعر الجاهلي، ص379 - 380.
- ⁵³ ينظر: قراءة جديدة في الشك في أدب الجاهلية، ص19.

- ⁵⁴ ينظر: الشعر الجاهلي، د. إبراهيم عبد الرحمن محمد : ص 92 – 93.
- ⁵⁵ ينظر: المرجع نفسه : ص 93.
- ⁵⁶ ينظر: المرجع نفسه.
- ⁵⁷ ينظر: المرجع نفسه : ص 95.
- ⁵⁸ الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، د. علي أحمد الخطيب، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط 1، 2003م، ص 7.
- ⁵⁹ أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، 1377هـ، ص 5.
- ⁶⁰ الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، ص 5.
- ⁶¹ العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 23، 2000م، ص 166.
- ⁶² العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص 168.
- ⁶³ من بين أشهر تلك الردود : الشيخ محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي. محمد فريد وجدي، نقد كتاب الشعر الجاهلي. د. محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد. د. محمد أحمد الغمراوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي.
- ⁶⁴ العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ص 175.

قائمة المصادر والمراجع:

- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، 1377هـ.
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 2000م.
- دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1979م.
- الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، د. علي أحمد الخطيب، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط 1، 2003م.
- الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية، إبراهيم عبد الرحمن محمد، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1، 2000م.

-
- طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي، نشرة محمود شاكر القاهرة،
1974.
- العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 23، 2000م.
- في الأدب الجاهلي، طه حسين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 3،
1933م.
- قراءة جديدة لقضية الشك في أدب الجاهلية، د. مصطفى الجوزو، دار الطليعة -
بيروت، ط 1، 2001م.
- قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني
القاهرة، ط 1، 1997م.
- النص - السلطة - الحقيقة، نصر حامد أبوزيد، المركز الثقافي العربي، بيروت،
ط 1، 1995م.
- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار الجيل، بيروت،
الطبعة الثامنة 1996م.
- موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، لبنان، ط 3،
1993م.